العادات والتقاليد في روايات المدينة الفاسدة" الديستوبيّة" في القرن الحادي والعشرين

أ.د. يوسف حامد جابر *

منار العرب. **

ملخّص

إنّ التّراث الشّعبي من أسس تاريخ أيّة أمّة، وهو من سمات المجتمعات، يميّز بين مجتمع وآخر، لما فيه من اختزاليّة للماضي، وصورة عن ذهنيّة جمعيّة سائدة. ويزخر تراثنا الشّعبي العربي بالمعتقدات والأمثال والعادات والتّقاليد التي حافظ . الكثير منها . على نفسه، وباد قسم آخر، وما يهمّنا في هذه الدّراسة تسليط الضّوء على جانب واحد من جوانب التّراث الشّعبي وهو العادات والتّقاليد التي من شأنها أن حطّت بمجتمعنا العربي، وأبقته مشدوداً إلى ماضيه، على أساس أنّها . أي العادات والتّقاليد . من شأنها الحفاظ على نسيج هذا المجتمع وبينيانه.

وتركّز الدّراسة على البحث في العادات والتّقاليد، تنظيراً وتطبيقاً، وتناولنا في الدّراسة الأثر السّلبي لهذه العادات والتّقاليد، والتي من شأنها أن تدمّر المجتمع وأن تبقيه مشدوداً بالماضي؛ إذ نقف في طريق التطوّر والتقدّم.

الكلمات المفتاحيّة:

المدينة الفاسدة . التّراث الشّعبي . العادات . التّقاليد

* أستاذ النقد الأدبي العربي الحديث قسم اللغة العربية. جامعة تشرين اللاذقية. سورية.

** طالبة دكتوراة في اللغة العربيّة وآدابها في جامعة تشرين . اختصاص: أدب حديث.

***Dr. Yousif Hamed Jaber**

**** Manar Al-Arab**

Summary

Folklore is one of the foundations of the history of any nation, and it is one of the characteristics of societies. It distinguishes between one society and another, because of its reductionism to the past, and an image of a prevailing collective mentality. Our Arab folklore is rich in beliefs, proverbs, customs and traditions, many of which have preserved themselves, and another part has perished. What is important to us in this study is to shed light on one aspect of the folklore, which is the customs and traditions that would have destroyed our Arab society and kept it tied to its past. On the basis that they - that is, customs and traditions - would preserve the fabric .and structure of this society

The study focuses on researching customs and traditions, in theory and practice. In this study, we dealt with the negative impact of these customs and traditions, which would destroy society and keep it tied to the past. As we stand in the way of development and .progress

key words : The corrupt city - folklore - customs - tradition

Professor of Modern Arabic Literary Criticism, Arabic Section, Tishreen University *.

** Student a PHD student in Arabic language and Literature in Tishreen University. Major: Modern Literature

أهميّة البحث وأهدافه:

تنبع أهميّة البحث في تناول العادات والتّقاليد السّلبية، من دون الوقوف عند الجيّدة منها، وتبيين مخلّفاتها على مجتمع رواية المدينة الفاسدة.

ويهدف البحث إلى الوقوف عند مجموعة من العادات والتّقاليد، وكيفيّة تناول الروائيين العرب لها، إذ انطلقوا من إيديولوجيّات واعية في تناولهم لها، تعي الأثر السّلبي للعادات والتّقاليد البالية، ويترك الرّوائي لمتلقّيه أن يبني آراءه الخاصّة تجاهها.

منهج البحث:

إنّ المنهج الذي اعتمده البحث في الدِّراسة هو منهج فرض نفسه على البحث، وهو المنهج الوصفي التّحليلي؛ إذ يقوم على رصد الظّاهرة وتحديدها، واستنطاق الدّلالات المتحقّقة داخل النّص، كما أنّه . أي المنهج . الأقدر على سبر أغوار النفس الإنسانية والعقل اللذين تصدر عنهما المنظورات الإيديولوجية.

النتّائج والمناقشات:

تعَدُّ المجتمعات ميدانًا رحبًا للدِّراسات في خلال رصد حركات ظهورها وأزمنة هيمنتها أو انتكاساتها، وسقوطها وتحليل عاداتها وأعرافها وسلوك أفرادها وتوجُّهاتهم.

تتكوَّنُ المجتمعاتُ من عناصرَ عديدةٍ أهمُّها الأفراد الذين تجمعهم عادات وتقاليد في زمان ومكان معينين، وتربطهم علاقات وظواهر اجتماعية يمتازون بها من غيرهم، فالمجتمعات تقوم على منظومات عديدة كالأخلاق، والدِّين والأعراف، والعادات والتُّقاليد، وغيرها من المنظومات التي تختصّ بكل مجتمع، وتميِّزه من غيره.

لا يمكن إغفال دراسة العادات والتقاليد في المجتمع العربي عامّة، ومجتمع الرواية بخاصّة، فهي التي تمنح رؤية عن ذاكرة جمعيّة، ومرآة عن الماضي، تعكس صورة الماضي والحاضر على حدّ سواء، كما أنّ العادات والتقاليد ناموس مؤثر في بناء شخصيّة الفرد، النّواة الاجتماعية الأساس، فالإنسان على ارتباط وثيق ببيئته ومجتمعه، وانطلاقاً من هذا المنظور سنستعرض تعريف المصطلح أكاديميّاً.

(يعُدُّ مصطلح " عادة " من المفاهيم الأساسيّة في الدِّراسات الإثنولوجيّة أو دراسات الحياة الشَّعبية، ولذللك كثيراً ما دار الجدل حول أهمّيتها، ويقول سابيرsapir" تستخدم كلمة عادة للدّلالة على مجموع الأنماط السّلوكيّة التي يحملها التّراث وتعيش في الجماعة. وذلك على خلاف أوجه النّشاط الشّخصيّ للفرد الّتي تتصف بمزيد من العشوائيّة) [1]، والعادات عبر الزمن قد تحولت إلى قانون يسري على كل فرد لا يمكن الخروج عنه، فتغدو العادات شبيهة بالقوانين الناطمة في حياة الأفراد والنَّاجزة فيها. وفي ذلك (" يقول قابس " إنّ التاريخ يثبت أنّ العادة قد تحوّلت إلى قانون، وإنّ القانون تحوّل بدوره إلى عادة ") [2]

أمّا عن التّقاليد فهي أنماط سلوكيَّة، ألفها النَّاس، ويشعرون نحوها بقدر كبير من التَّقديس، ولا يفكّرون في العدول عنها أو تغييرها) [3] وهي تعنى بقول كلمتها على الرَّأي الجّمعي، وأساس تماسك الجماعة، فمدى اعتناقها لهذه القوانين وتمسّكها به، سيفضي حتماً إلى تماسكها. وتتميّز التقاليد بصفة التّوريث، فالتوارث أهمّ خاصيَّة في التقالّيد، لأنّها لا تنتقل من جيل لأخر إلّا عن طريق التّوارث، كما أنَّها تتميَّز بميزة التحفُّظ من جانب الأسلاف المورِّثين، في نقل وتوصيل العادات التي يستحسنـوها إلى الخلف، أي التمسك بهذه العادات والحرص عليها من طرف الخلف. وهذا ما يظهر التقبل الواعي لهذه العادات القديمة، وتقبلها برغبة ممارستها مع الشّعـور بالإعجاب بها والاعتزاز بـها

[1]– هولتكرانس، إيكه: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، تر: محمد الجوهري– حسن الشامي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط:2، (د.ت) ص 247.

[2]– هولتكرانس، إيكه: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ص248.

[3] – مجموعة من المؤلفين: أثر مواقع التواصل الاجتماعي على عمليَّة الضبط الاجتماعي، مركز رؤية للدراسات الاجتماعية، سلسلة البحوث والدِراسات، السّعوديّة، ط:1، 2014 م، ص 66 – 67.

وهذا ما يفسّر طغيانها وسيطرتها على حياة الناس حيث تقيد سلوكهم وتتدخل في كلّ أنواع النَّشاط المتبادل بينهم [1]

فالتّقاليد هي النِّظام المسيّر لحيوات المجتمعات، من خلال القوانين النّاظمة لسلوكهم وتصرفاتهم، وهي تمثّل معتقدات القدامى الموروثة وقيمهم، على أن هذه التَّقاليد تحظى بالتّقدير والاحترام في الذَّات البشريّة، وهي أمانة يسلّمها جيل إلى لآخر لاسيَّما وأنَّها راسخة في الذاكرة الجمعية وتقتصر على المحتفظ به والمتواتر عبر الأجيال.

ومما يجمع المجتمعات العربيَّة هو تقارب العادات والتَّقاليد، والمجتمعات العربيّة ظلَّت محافظة على عاداتها وتقاليدها، فهي ترتدّ دائماً إلى الماضي، كما أنَّها تعدّ العادات والّتقاليد طابعاً اجتماعيَّاً، يحافظ على المجتمع، فهي السّور المنيع ضدَّ أي انحلال او تفلُّت عن الوسم العام للمجتمع، وكلُّ خروج عن هذه العادات هو أشبه بثورة ضد البنى الاجتماعيّة التي تُقابَل بالرَّفض. وهي بذلك خط سلطوي تلقائي في الآن نفسه، والمجتمع الذي خلق هذا الصَّنم، نصَّب منه آلهه محاطة بالقداسة وطالب أفراده بالانصياع لقوانينه، ولعلَّ هذا الارتداد إلى الماضي، كان أشبه بوضع العصي في عجلة التقدّم ومواكبة التطوّر، فتضع الفرد في طور متخلِّف؛ إذ إنّ (الإنسان المتخلِّف كائن تتحكَّم به التّقاليد وتقيِّد كلّ حركة أو انطلاقة نحو المستقبل لديه. فعنصر القهر واضح تماماً في المجتمع التقليدي الذي يمتلك أبناءه ويلغي مبادراتهم، إنه يقولبهم في صيغ جامدة وثابتة.) [2]

[1] – يُنظر: فايزة، إسعد: العادات الاجتماعيّة والتّقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة، مقاربة سوسيو–أنثربولوجية لعادات الزواج والختان مدينتي وهران وندرومة نموذجاً، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، إشراف أ. حجيج الجنيد، جامعة وهران، السنة الدراسية 2011–2012م، ص 122.

[2]– حجازي، مصطفى: التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء. بيروت، ط:9، 2005م، ص104.

وتزخر الرّواية العربيّة بالعادات والتقاليد – وأخصّ روايات المدينة الفاسدة – وهي بدورها كشفت عن الحياة الشعبيّة وتردِّيها، والتّمسّك بهذه العادات والتَّقاليد يعدّ نوعاً من أنواع التمسُّك بالهويّة الاجتماعيّة التي لا خروج عنها، ووصمة تخلّف عصيّة على التطوّر، عالقة في سالف الماضي، لا تتوجّه نحو المستقبل، ولذلك بقي الإنسان العربيّ ومازال يمثل الصّنف البشريّ المتخلّف كالمجتمع الذي يحيا فيه (الإنسان المتخلّف كالمجتمع المتخلّف. يتوجّه نحو الماضي ويتمسّك بالتقاليد والأعراف بدل التصدّي للحاضر والتطلّع إلى المستقبل) [1]

ولا مراء أنَّ العادات والتَّقاليد قد نشأت تلبية لحاجات الفرد والمجتمع، كما أنَّ التمسّك بها، تمنح معتنقيها نوعاً من الاستقرار الدّاخلي، وهي تبعد الإنسان عن الشّعور بالقلق ممّا هو آتٍ في مضامين المجهول، فاعتناق العادات والتَّقاليد، هي الدّرع الحصين ضد أي خطر يهدّد الإنسان في حال حدوث أيّ تغيير يطرأ على المجتمع.

وتظهر أهمية التمسُّك بالعادات والتَّقاليد فيما يخصُّ مسائل الشَّرف، فحفاظ الفتاة على عذريتها قبل الزواج من الموضوعات الحسّاسة التي تمسّ كيان وقيمة العائلة والقبيلة، وكانت المجتمعات العربيَّة ومازالت تعتبر هذا الأمر عاراً يجب غسله عن طريق إراقة الدم عبر منظور الجماعة وليس الدّين، فالدّين الإسلامي أمر بالسَّتر والتوبة، ومنع إقامة الحد إلّا بتحقيق شروط تعجيزيّة، وتزخر الرّواية العربيّة بهذا الموضوع الذي يعدّ من صلب الواقع والعلاقات خارج المؤسَّسة الشّرعية الاجتماعيّة، فنجد فخر الدِّين في رواية "مقتل فخر الدين " يكاد يفقد صوابه عند سماعه بخبر ابنة عمّه التي فقدت عذريتها مع عشيقها، إذ يقول الرَّاوي في هذا الإطار: (حين علم فخر الدين بأنَّ ليلى قد أخطأت لم يصدّق أذنيه، ولما أيقن أنَّها قد فرّطت في عرضها من فرط حبها لرزق كاد

[1]– حجازي، مصطفى: التخلف الاجتماعي، ص 103.

يفقد صوابه، وزيّن له الشيطان قتلها، وصوّر له أن الشَّرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم. لكنّه لما استعاذ بالله استعاد هدوءه، وتوضأ وغمس رأسه في الماء البارد طويلاً) [1] سيطر الموروث الثقيل على المقتطف السَّابق، والذي تولّى مهمّة السّرد فيه راوٍ عليم، يعلم عن أبطاله أكثر ممّا يعرفون عن أنفسهم، وهذا ما بدا واضحاً عند معرفة البطل بفقدان ليلى لعذريتها، وهو أمر مخالف للعادات وللتَّقاليد وللعرف الاجتماعي، والأمر الثّاني عندما تبادرت إلى ذهنه فكرة قتلها، وقد قرنها الرّاوي بالشّيطان الذي زيّن هذه الفكرة، التي باتت عادة متعارف عليها وهي " قتل الفتاة المخطئة على يد أحد أصولها أو فروعها "، وكأنّ حياة الإنسان وموته بيد الإنسان، وهذه العادات مازالت سارية إلى يومنا هذا، وقد لجأ إليها الاقدمون، كحدٍّ من الحدود التي لا يمكن تجاوزها، لأنّ تجاوزها يكلّف الحياة. ومن هذا سبب حفاظ المجتمع العربي على العادات والتَّقاليد، لكونها تعطي شيئاً من الاستقرار الحياتي، وأماناً نفسيَّاً، فالتَّمسك بها عروة وثقى، وبقاء في دائرة آمنة اجتماعيَّاً، وتبعد الإنسان عن التَّحديّات التي يمكن أن تعترض كل خارج عنها، ولا تدع الإنسان يجابه المجهول المُقلق.

ولا مراء في أنّ العادات والتّقاليد توازي الدّستور الخفي، وهي وسيلة للضّبط الاجتماعي، ويُعرّف الضبط الاجتماعي بأنَّه(مجموعة من العمليَّات المتداخلة لكلٍّ من الفرد(الضبط الدَّاخلي) والمجتمع، تمارسها أجهزة عديدة، يستطيع بها المجتمع فرض السَّيطرة والرَّقابة على أفراده، وتنظيم سلوكهم) [2] فهو مجموعة من الأنماط الثقافيَّة والقيم والأفكار والمثل، التي بوساطتها يتمكّن أفراد المجتمع التَّغلُّب على التوتر المقلق، واستعادة التّوازن إلى المجتمع، بسبب الأفكار والجهود المبذولة للإصلاحات، ومنع سريان الخلافات، وهذا

[1] – شكري، عز الدين: مقتل فخر الدين، الدار المصرية اللبنانيّة، القاهرة، ط: 3، 2009م، ص51.

[2] – فياض، حسام الدين محمود: الضبط الاجتماعي " تعريفه، أهميته، أنواعه، آلياته، نظرياته " مكتبة نحو علم اجتماع تنويري، (مكتبة إلكترونية)، ط:1، 2018م، ص6.

ما سنجده في الرواية نفسها، عند محاولة عم فخر الدين والد ليلى، أن يصلح الموقف، ويتخلَّص من الخطيئة بعرضه على البطل أن يتزوَّج بالفتاة، فيقول الرّاوي في المشهد الحواري الذي دار بين الرّجلين: (احتقن وجه فخر الدين ونفذ السّيف الملوّث في الجرح المفتوح .....

حاول التماسك حول الجرح وتمتم مع ريقه الذي لا ينبلع،

ومع ذلك تريد تزويجها لي؟

طبعا.

ولكن كيف؟

هي بنت عمِّك.

ولكنّها تحبُّه هو. أعطت نفسها له هو. سلّمت شرفها له هو.

هو لا يريد سوى الأرض والتّجارة.

ولكن العرض؟ العرض يا عمّي؟ أأنا الذي يقول لك هذا؟

الأرض هي العرض يا بني. وثق أن أحداً غيرنا نحن الأربعة لا يعرف بالموضوع.

وربّنا؟

إنّ الله ستّار حليم.) [1]

من خلال الحوار الذي دار بين البطل فخر الدّين وعمه حول إيجاد حلّ لمشكلة الشّرف، حاول العمّ تقديم اقتراح تزويج ابنته لفخر الدين، للتغلّب على الصّراع والتوتر الذي ستخلّفه الفضيحة التي ستطول العائلة، إن استفشى السّر خارج دائرة العائلة التي ستكون تحت مداس المجتمع الذي سيلطخ سمعتها، وبالتالي

[1]– فشير، عز الدين: مقتل فخر الدّين، ص53.

سيُعاد التَّوازن – في حال قبول البطل الحل – إلى الجماعة بفضل جهد العمّ لإصلاح الخطيئة، ومنع حدوث الخلافات.

على أنّنا لا نوافق على هذا الحل لاسيّما وأنّه قد ظهر من خلال الحوار نفسه أن مشكلة العمّ ليست العرض وحسب، وإنّما الأرض، فيدخل الطمع في الحوار كمحرّك أساس لفكرة تزويج الابنة للبطل خشية من انتقال الممتلكات إلى شخص من خارج العائلة، وفي ذلك فساد في عادات المجتمع التي تُلزم ابن العمّ بابنة عمّة، بغضّ النّظر عن شروط الزّواج، وعن أخذ رأي العروسين.

والملحوظ على هذه الحواريّة استعارة الدّين كنوع من الإقناع، لسرعة نفاذه إلى نفس العربي، والتحكّم في الإيديولوجيّة. إذ إن الدين كان يوظّف لخدمة المآرب الاجتماعيّة. إن كان هناك أيّ تقاطع بين الإيديولوجية الخاصّة بالأعراف والعادات والتّقاليد، وبين الدّين.

وفي منحىً آخر، أظهر روائيُّو المدينة الفاسدة احتكام النّاس إلى العادات والتَّقاليد، في إلغائيَّة للحكم الدِّيني، فالأحكام الشّرعية في الإسلام تبنى على اليقين وغلبة الظن المبني على الأدلة الواضحة، ولا تتبنّى الأحكام القائمة على الشكّ والوهم، كتقليد قتل الفتاة المحصَّنة بداعي التخلُّص من العار، وهذا ما قدّمه " خال عبده " في سرده لأحداث روايته "فسوق"، والتي تمَّ فيها قتل الفتاة "جليلة " بعد اعتقادهم . أي أهلها. بأنّها لوَّثت شرفهم، ويستفيق أهل الحي على مشهد الجثَّة، وجريان دمها عبر الأزقّة، وفي ذلك يصف الرّاوي المشهد بقوله: (تعثَّرت أقدام المصلِّين بجسدها، من غير أن ينتبهوا إلى أنَّ روحاً زهقت قبل أن ينهضوا من مراقدهم. ظنُّوا في البدء أنَّ كلباً مات، أو حماراً تخلّى عن حمولته وقرَّر الرحيل، كما يليق بحمار ملّ من النعوت المعلقة برقبته كأجراس لا تهدأ .... ومع إفصاح النهار عن حضوره، اكتشفوا جثّة أُمسكت على رأسها من جهة الرّقبة، وشُقّ بلعومها شقاً سيئاً، لإخراج روحها دفعة واحدة. ألقوا عليها شالاتهم، وتجمعوا

حولها، كقطط لا تعرف سوى المواء ...كان دمها حبلاً طويلاً تعرّج في كلِّ الأزقة بحثاً عن قاتلها، وحين تباطأ في جريانه، أوصلوا جثمانها إلى قبر غائر. ونثروا أخبار فسوقها في جنبات الحي) [1]

لقد أوضح المقتطف السّابق نفاد العادات والتّقاليد في المجتمعات العربيّة، وقد أبدع خال عبده في تصوير مشهده بانورامياً، في تنقّل عين كاميرته في المكان الذي شهد قتل النّفس البريئة، واستدعى ثيمة الحيوان، لما يلائم المشهد الذي لا يسمو إلى الإنسانيّة، ولا يمت إليها بصلة، وتكون الحيوانات أكثر رحمة من البشر الذي يسفكون الدّماء، ذلك الدّم الذي يبحث عن سافكه، وهذا الدّم أشبه بـ " حبل" وفي ذلك تلميح إلى جريمة تستدعي حبل مشنقة لمرتكبها، القبر الغائر الذي يُفصح عن ضرورة التكتّم على الفضيحة المُعلنة والملقاة على قارعة طريق أناس تعثروا بها في طريق العودة من أداء فريضة الفجر، يتوازى هذا القبر الغائر" النّسق الُضمر" ويدخل في علاقة تضاد مع نسق ظاهر وهو نثر أخبار الفسوق، ممّا يخلق مفارقة مشهديّة، خيّبت انتظار المتلقّي. وأحدثت صدمة أمام توقعاته.

فقد حرَّم الإسلام قتل النّفس الإنسانيَّة بغير حقّ، وجعلها من أعظم الجرائم وأكبر الكبائر، قال الله عز وجل في محكم تبيانه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [2]، ولم نجد أي نصّ ديني في هذا الموضوع، بل وضع إنّ الدّين وضع القوانين لثبوتيّة التّهم، وفرّق الدّين في مسألة الحدِّ بين المُحصن وغير المحصن، إلّا أنّ أهل " جليلة " نفَّذوا الحدَّ المتعارف عليه في الذّاكرة الجمعيَّة، ولا مراء أنَّ قضيَّة المحافظة على الشَّرف مهمَّة في المجتمع، لما فيها من صقل في العلاقات المبنيَّة على الثِّقة، وفيها منع من اختلاط الدِّماء، إلّا أنّ العادات

[1] – خال، عبده: فسوق، دار الساقي، بيروت، ط:3، 2015م، ص 15.

[2] – القرآن الكريم: سورة النّساء، الآية 93.

والتّقاليد تعمد إلى تقويض الدِّين حينما لا يخدمها، وجنّبته من البت فيها، لأنّ المرأة هي الحلقة الأضعف، وكأنّ هذه المسألة محصورة في جسد الفتاة وعذريّته، وفي ذلك تقول د. نوال السّعداوي:(هكذا يتم التَّضليل فيما يخصُّ قضيَّة المرأة، وكأنَّما التَّقاليد القديمة كلّها إيجابيَّة، ولا بدَّ من الحفاظ عليها، ولا توجد تقاليد سلبيَّة يجب الإقلاع عنها) [1]

يبدو أنّ عادة الزّواج من العادات التي لا تخلو منها غالبيَّة الرِّوايات العربيّة، وكأنّها صكّ غفران للخطايا كلّها، خاصَّة إذا تمت ممارسة العلاقة الجسديّة خارج مؤسسته التداوليّة، ففي رواية هديل سيدة حرّة، تقع البطلة/ القائدة في حبِّ أحد الفرسان الذين كانوا يرافقونها في المعارك، بعد أن قُتل زوجها وهو يذود عن الحمى، يتنامى السَّرد في الرّواية، وتُنسج خيوطه من الوحدة والحرمان الذين يطالان البطلة، التي تستجدي وجود الحب في حياتها، وتغذيه نداءات التقاء الجسد بالجسد، وبين الرّفض الذي يسبغه القانون الاجتماعي، وصوت الضمير الدّاخلي الذي يُسمع صوته عالياً بعدما أن استفاق إثر وقوع المواقعة، ينقل لنا "الدّامون" هذا المشهد الحواري – حوار خارجي –[2] بين البطلة وعشيقها :

(أخاف منك أن تكون كباقي الرجال، لا تراني سوى حواء السّاقطة العارية، .....لا تسحقي النَّفس باللوم أكثر مما تتحمّل، فما الإنسان سوى مخلوق ضعيف. ما وقع قد وقع، وما فعلته، وها أنا أحمل همِّي كما يحمل مؤمنو

[1] – السَّعداوي، نوال: كسر الحدود، مؤسّسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتّحدة، 2017 م، ص216.

[2] – الحوار الخارجي: وهو عرض دراماتيكي من طبيعته التبادل الشفاهي بين شخصيتين أو أكثر، وبعبارة أخرى هو: صوتان لشخصين مختلفين يشتركان معا في مشهد واحد، تتبين من خلال حديثهما أبعاد الموقف. يُنظر: إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، منشورات جامعة البعث، سورية، 1988-1989م، ص 294.

النَّصارى، وهم حفاة، تمثالاً من خشب صقيل للنبي عيسى، فوق أشواك. إنّني مشدودة بخطيئتي إلى صليب من ندم ما يفكّني منه سوى زواجي منك.... نعم لن يكفّر عن ذنبي سوى زواجي منك.) [1]

اتّسمت الحواريّة السّابقة بابتعادها عن أهمّ هدف من أهداف الحجاج ألا وهو "الإقناع" فالحجاج أساساً هو (خطاب صريح أو ضمني، يستهدف الإقناع والإفهام، معاً مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المُتّبعة في ذلك) .[2] إنّ تقاليدنا العربيَّة التي وُجدت قبل الإسلام – وعزّز الإسلام من وجود النوع الجيِّد منها –، هي التي زرعت شعور النّدم في ضميري البطلين، و هذا ما لا نجده في المجتمعات غير العربيّة، فالأفراد لا يتمتّعون بالحرية الكافية في أجسادهم ورغباتهم، حتى في الأمور التي لا تحدث على مرأى من المجتمع، فإنَّ التّربية الاجتماعيّة أسّست لنفسها في وعي وضمير الأفراد، لكي يظلّون يستشعرون برقابة المجتمع التي تصدر عن ذواتهم. بالإضافة إلى أن هديل ليست بالمرأة العادية، وإنما هي عالية السيادة (فالمرأة عالية السِّيادة تقضي أعواماً من عمرها باحثة عن ذكر أعلى منها سيادة وأهميّة، في الوقت الذي تكون مشتبكة مع الذكور في علاقات متعدّدة، وبمجرد أن تعثر عليه لا تتركه بعد ذلك، وتتزوجه وتحيا معه في سعادة) .[3]

---

[1] – الدامون، البشير: هديل سيدة حرّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط:1، 2015م، ص131.

[2] – أعراب، حبيب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، مج 30، ع: 1، مجلة دورية تصدر عن المجلس الوطني، للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001 م، ص 99.

[3] – ولسون، كولن: التاريخ الإجرامي للجنس البشري سيكولوجية العنف، تر: رفعت السيد علي، جماعة حور الثقافية، القاهرة، ط:1، 2001م، ص 26

وكما أسلفنا كانت الحاجة أو الفقد هو الدَّافع الرئيس لارتكاب هذه الخطيئة (ومع ذلك فإنَّ الحياة الجنسيّة هذه القوّة المولّدة للعالم، تظلّ لغزاً هو أعصى الألغاز. ذلك أنَّ الرّغبة التي لا تفتأ تجذب كلّاً من الجنسين نحو بعضهما بعضا، هي رمز لشيء مفتقد على الدوام، غامض عصي على الفهم)[1]

فالمشكلة في المجتمع العربي, أنّه يبحث عن الحلول بعد الوقوع في الخطايا، ويلجأ إلى نفسه . أي المجتمع . لأخذ الحلول منه، على اعتبار أن لا خروج منه إلّا إليه، فتظل المجتمعات منكفئة على ذواتها، وتدور حول نفسها، فلا تقدّم ولا تطوّر. ومن العادات والتّقاليد الموروثة في المجتمع العربي زيارة أم الزوج لابنها بعد ليلة الزفاف، وذلك من باب الاطمئنان على فحولة الرّجل وطهارة المرأة، وانتهاك خصوصيّة الزّوجين، وإبقاء عادات المجتمع قانوناً يعلو ولا يُعلى عليه، حتّى في أشد التفاصيل خصوصيّةً، إذ إنّ هذه العادات هي الحَكَم على هذا الزّواج من حيث استمراريته أو إنهائه، فنجد ذلك في رواية " حرب الكلب الثّانية" كيف تُسيِّر العادات أم الزّوج نحو بيت ابنها، واقتحام كنه سر بيته، فنجد في رواية "نصر الله " هذا المقتطف الذي يصف فيه تأثّر الأم بالعادات:

(في الصَّباح التالي لليلة زفافه زارته أمه – متأثِّرة بعادات الزّمن الماضي – حاملة معها ما لذَّ وطاب من أطعمه قادرة على شدِّ أزر العروسين، لإنجاب حفيد أو اثنين، دفعة واحدة؛ فمال نحوها، أي أمّه، وقال: أريدك في كلمة. خرجت أمه تتبعه وقلبها يهوي ويصعد من قدميها حتى رأسها، خائفة أن يفاجئها بانتكاسة، تتعلّق بذكورته، أو بطهارة العروس، تفسد فرحتها) [2]، إنَّ المجتمع العربي عامة، يُبقي العروسين داخل إطار متابعة وتقييم، فأحد أهم مقاييس الرجولة هو قدرة الرجل الجنسية في علاقته الزوجية،

[1] – لبيب، الطاهر: سوسيولوجيا الغزل العربي " الشعر العذري نموذجاً، الدار البيضاء، ط:1، 198، ص 11.

[2] – نصر الله، إبراهيم: حرب الكلب الثانية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط:1، 2016م. ص30

والعجز الجنسي هو وصمة عار في تاريخ الرجل وعائلته (ويأخذ العجز الجنسي – داخل جو ديني يسمح بالتعبير الجنسي – صورة مأساة يشعر معها الفرد بالعقاب الإلهي، ويذل جماعته معاً أكثر مما يعتبرها مجرد نتيجة لمصيبة شخصيّة)[1]

وقد بدت الأمّ مشدودة إلى عادات المجتمع وتقاليده فيما يخصّ ليلة الزّواج، حاملة معها ما يساعد الزوجين على الإنجاب، وعادة اطمئنان الأهل على إتمام عمليّة الزّواج راسخة في الذّاكرة الجّمعيّة، وكأن مثل هذه الموضوعات لا تتسم بالخصوصيّة، بل تكون مُعلنة، وما أكّد ذلك، القلق الذي اعترى الأمّ حينما طلب البطل من أمّه أن يتحدّثا على انفراد. فام يتبادر إلى ذهنها سوى عجز ابنها جنسيّاً، وعذريّة الزّوجة.

إن إرثنا الاجتماعي القديم قد أوغل كثيراً في التعمّق في نفسيَّة الأفراد، وهو بذلك يعمل على استزادة المشاكل النّفسية عند الإنسان، لذا يبقى الوعي الإنساني مكبّلاً ولا مجال لتطوّرِه وارتقائه ويرى " شايغان داريوش" أنَّ (التّراث والمعتقدات القديمة أصنام للذِّهن، وعقبات في طريق ازدهار العقل وتطوره) [2]

ويبدو أنّ الإنسان العربي مازال متمسِّكاً بعاداته و تقاليده إلى يومنا هذا ، فهي رفيقته في حلّه وترحاله، تزامناً مع الهجرة التي رافقت المشهد الاقتصادي السِّياسي في بلاده، فالمجتمع العربي المُتجرّد كان يمنح هاجساً مقلقاً، لاسيّما وأنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه موثِر ومتأثِّر بما حوله، وبقيت العادات والتَّقاليد هي الإسفين الذي يشدّه إلى أصله وجذوره وهذا ما صورته بعض من روايات المدينة الفاسدة، التي حُبكت أحداثها واختيرت شخوصها بواقعيّة موهمة، ففي رواية " صخب ونساء وكاتب مغمور" يدور الحوار بين شخصيتين إحداهما – وهي الكاتب – تتطلّع للسَّفر والغربة ، وتجد ردّاً من الشّخصيّة

[1]–الطاهر، لبيب: سوسيولوجيا الغزل العربي – الشعر العربي نموذجاً – ص 113.

[2] – شايغان، داريوش: الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، تر: حيدر نجف، دار الهادي، بيروت، ط: 1، 2007 م، ص41.

الثّانية والتي تقدّم " العادات والتقاليد ذريعةً " للإقناع وللحيولة دون سفر الكاتب المتطلّع إلى الهجرة: (وكعادة المهاجرين الذين يجدون في أنفسهم هذه النستالوجيا الوطنيّة وقد تيقّظتْ على روائح الخشب القديم والزّخارف والبسط والأدوات القديمة.....فحذّرني من تغيير العادات والأخلاق والقيم، وكل هذه التّرهات الذّهبيّة التي يحتفظون بها احتفاظاً، فكدت أفقد عقلي أمام بلاهة أعذاره. وشرحت له الأمر كما فهمته وعرفته، قلت له لا تغيير في العادات ولا بطيخ، في ساحة هلنسكي نصب حجي عيدان قزان الهريسة ووزع على روح الحسين ..والنرويجيّات كلّ واحدة بيدها الطنجرة ..وقفت بالدور في ثواب أبي عبد الله) [1] إنَّ للعادات وللّتقاليد دوراً سلبيّاً في حياة الفرد . كما أشرنا . والالتزام بها خارج البلاد العربيّة أمر لا منطقي وغير مبرَّر، ونقل صورة قميئة و غريبة عن واقعنا المعيش للعالم، والمهاجر العربي واقع بين المطرقة السّندان أمام حيثيّات الهجرة، فإمَّا الغربة وسحق العادات والانخراط في مجتمع لا يشبه ذهنيّة آبائه وأجداده، وإمَّا الحفاظ عليها في مجتمع متحضِّر بروليتاري لا يعترف بها أساساً ولا ينبغي له التعرّف إليها أو الاعتراف بها. (إنَّ الإنسان إذا كان يرغب جديّاً أن يعيش أفضل حياة تتيسَّر له، وجب عليه أن يتعلَّم أن ينظر نظرة النَّاقد إلى العادات والمعتقدات القبلية.) [2] وقد بدا الكاتب من خلال الحوار أنّه على وعي تام بخطأ تصدير العادات والتقاليد إلى الخارج، وقد أطلق عليها اسم " التُّرّهات الذّهبيّة " بشيء من السّخرية والهزء. كما أنّه أظهر ازدراءه للنِّقاش، الذي كاد يفقد عقله بسببه.

[1] – بدر، علي: صخب ونساء وكاتب مغمور، دار نون، الإمارات العربية المتحدة، 2005م، ص 15.

[2] – راسل، برتراند: السّلطة والفرد، تعريب: شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط:1، 1961م، ص133.

خاتمة:

من خلال هذه الدّراسة توصّلنا إلى مجموعة من النّتائج:

1- أنّ العادات والتّقاليد كانت مدعاة للفساد الاجتماعي، في مجتمع رواية المدينة الفاسدة.

2- وقد كانت وما زالت عقبة في طريق التقّدّم والتطوّر، وإن كانت في الآن نفسه وسيلةً ناجعة في حفظ الأخلاق والدّم، والحفاظ على ذاكرة الشّعوب الجمعيّة، وتنظيم حياة الفرد والمجتمع. لا سيّما وأنّه ليست كل العادات والتّقاليد سلبيّة في كنهها.

3- بدا أنّ العربي رغم الظّروف المحيطة به، ظلّ محافظاً عليها حتى في هجرته إلى المجتمعات الغربيّة، وهو بذلك يقُدِّم ذهنيّة متخلّفة عن مجتمعه العربي.

4- كما ظهر جليّاً من خلال الرّوايات أنّ الاحتكام إلى العادات والتّقاليد يمثّل مهرباً وطريقاً لحلّ المشكلات التي تعترض المجتمع، وهو بذلك يُقدِّم أعراف المجتمع وتقاليده على الدّين الذي يوافق الفطرة.

5- العادات والتّقاليد لا تمثّل الدّين في مِرار كثيرة، كقتل الفتيات في مسائل الشّرف، وغيرها من المسائل التي تتعارض والدّين والأخلاق.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، منشورات جامعة البعث، سورية، 1988-1989م.
- بدر، علي: صخب ونساء وكاتب مغمور، دار نون، الإمارات العربية المتحدة، 2005م.
- خال، عبده: فسوق، دار الساقي، بيروت، ط:3، 2015م.
- الدامون، البشير: هديل سيدة حرّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط:1، 2015م.
- راسل، برتراند: السّلطة والفرد، تعريب: شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط:1، 1961م.
- السَّعداوي، نوال: كسر الحدود، مؤسّسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتّحدة، 2017 م.
- شايغان، داريوش: الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، تر: حيدر نجف، دار الهادي، بيروت، ط: 1، 2007 م.
- شكري، عز الدين: مقتل فخر الدين، الدار المصرية اللبنانيّة، القاهرة، ط: 3، 2009م.
- فياض، حسام الدين محمود: الضبط الاجتماعي " تعريفه، أهميته، أنواعه، آلياته، نظرياته " مكتبة نحو علم اجتماع تنويري، (مكتبة إلكترونية)، ط:1، 2018م.
- مجموعة من المؤلفين: أثر مواقع التواصل الاجتماعي على عمليَّة الضبط الاجتماعي، مركز رؤية للدراسات الاجتماعية، سلسلة البحوث والدِراسات، السّعوديّة، ط:1، 2014 م.
- هولتكرانس، إيكه: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، تر: محمد الجوهري– حسن الشامي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط:2، (د.ت).

- ولسون، كولن: التاريخ الإجرامي للجنس البشري سيكولوجية العنف، تر: رفعت السيد علي، جماعة حور الثقافية، القاهرة، ط:1، 2001م، ص 26
- لبيب، الطاهر: سوسيولوجيا الغزل العربي " الشعر العذري نموذجاً، الدار البيضاء، ط:1، 1987م.

رسائل الماجستير والدّكتوراه:

- فايزة، إسعد: العادات الاجتماعيّة والتّقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة، مقاربة سوسيو- أنثربولوجية لعادات الزواج والختان مدينتي وهران وندرومة نموذجاً، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، إشراف أ. حجيج الجنيد، جامعة وهران، السنة الدراسية 2011-2012م.

المجلّات والدّوريّات:

- أعراب، حبيب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، مج 30، ع: 1، مجلة دورية تصدر عن المجلس الوطني، للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001 م.